

الترجمة والمترجمون

للأستاذ د. جونسون دافيز

—•••••—

الحرب بطبيعتها أداة تخريب ودمار ، ولكن لها فوائد يجب أن توضع في الكفة الأخرى من الميزان . فهي رغم الناس على أن يشمروا عن ساعد الجد وينبذوا التكاسل والتراخي في نواح كثيرة . وبلادنا (بريطانيا) قد جنت من هذه الحرب فائدة جليلة : هي أنها سارت أقل انمزالا وانكاشا في حدود جزيرتها مما كانت من قبل . ذلك أن كثيرا من الأجانب قد لا ذوا بمواحلها ووجدوا فيها مقبلا يحميهم من الاضطهاد والعدوان . والإنكليزي المادي ، والإنكليزية المادية ، باختلاطهما بهؤلاء الأجانب ازداد فهمهما للأمم الأخرى وعطفهما على غير ملتتهما من الملل . ومن الدلائل على هذا ذلك العدد الضخم من الكتب التي صدرت خلال الحرب عن الدول والأمم الأجنبية . كما ازداد الاهتمام بالترجمة من اللغات الأجنبية ، الألمانية ، والبولندية ، والفرنسية ، والتشيكية ، ثم الروسية طبعاً . وأغلب هذه الكتب بطبيعة الحال قد ألفت قبل الحرب ، لأنه لم يصل من أوروبا التي احتلها الألمان إلا العدد الضئيل من الكتب . ومن هذه كتاب

وهل أدل على ندرة الحق والخير والجمال في عالم الإنسان من كونه جعلها مثلاً أعلى ، ومطمحاً من المطامح البعيدة ، وأمثلاً من الآمال النائية ؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه ، وكانت طبيعة ملازمة له ، ما جعلها كذلك . فهو كان صادقاً ما كان يمدح الصادق بصدقه ، ويمجّب منه أن لازمه وأقام عليه . ولو كان وفيّاً ما كان ثاك المستحيات عنده ... الخلل الرفي ، إنما يطمح المرء إلى ما لا يملك ، وأن مائة الدينار من الذهب هي (مثل أعلى) للفقير الفلّس ، ولكنها عند الفنى حقيقة نافهة ... ألا إني أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، ولكني لا أومن بإنسانك هذا ؟ فهل على من الله من شيء ؟

إذن قليقل الناس حتى ما شاءوا ! هلى الطنطاوى

جدير بالذكر هو « صمت البحر Le Silence de la Mer » ، ألفه فركتور Vercors . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في مطابع النشر الدرية في فرنسا ، بالرغم من فداحة الخطر ، ثم هربت منه نسخة إلى الخارج . وقد ظهرت له ترجمة إنكليزية بعنوان « أطفئ النور Put out the Light » . هذا الكتاب الصغير — فهو في الحق لا يزيد عن قصة قصيرة — يصف موقفًا لا بد أنه تكرر في مئات الألوف من البيوت في جميع أنحاء فرنسا المحتلة ، فهو يصف أسرة فرنسية صغيرة ، مكونة من رجل هرم وإبنة أخيه ، رغم على إيواء ضابط ألماني . وهو موقف سهل جدا اتخاذه فرصة للدعاية الرخيصة ، ولكن ليس من هذا أنفه قدر في هذا الكتاب ، فهو كتاب فن ، كتاب فن خالص . فالألماني لا يوصم بأنه مجرم أثيم ، والفرنسي ليس بطلاً . بل الألماني رجل مثقف ، طيب بطبيعته ، ومأساته موصوفة بعطف بديع ، وقد ترك إلى القارئ أن يستنتج ما يريد من النتائج . فهذا الكتاب ، على الرغم من ضآلة حجمه من المؤلفات القليلة عن الصراع الحاضر التي يمكن أن تمد أدبا رفيعاً .

هذه المسألة ، مسألة الترجمة من اللغات الأجنبية ، هي في اعتقادي ذات أهمية بالغة في بناء أدب الأمة . فهي هامة في الحل الأول لأننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن أمة ما نغير ما نعمله هو أن نقرأ كتاب هذه الأمة . ولكن أهميتها ترجع في أغلبها إلى هذه الحقيقة : إنه كما أن الأفراد مختلفون الطباع ، كذلك الأمم ، على نطاق أوسع ، مختلفة الخصائص ؛ فالأمم ، لاختلاف أقطارها ودرجات تعليمها وأنواع ثقافتها وتربيتها ، لها وجهات نظر في المشكلات اليومية ، ومشكلات الحياة والموت ، تختلف إحداها عن الأخرى بمض الشيء . وهكذا تجلب الترجمة دماً جديداً إلى أدب الأمة ، وكثيراً ما تكون مصدر إلهام ذى آثار عميقة .

واليوم انبعث من جديد الاهتمام بالروائيين الروس الأعظم حتى لم يعد ممكناً العثور في المكتاب على نسخة من روايتي تولستوى العظيمين « آنا كارينينا » و « الحرب والسلام » . وإذا أسعد الحظ امرءاً باقتناء نسخة ظل أصحابه يستمرونها منه بلا انقطاع . ومن حسن الطالع حقاً العثور على كتب دستيوفسكي

أو تشيكوف أو تورجنيف أو غيرهم من عظام كتاب الروس القدماء برغم أن كتبهم يتكرر طبعها .

قرأت مرة في أحد كتب النقد الأدبي أن العمل الأدبي ذا الأثر الأعظم في إنكلترا في هذا القرن هو ترجمة كنستانس كارت Constance Garnett للروائيين الروس الأعظم . هذا تقرير خطير ، وهو يدل على مقدار ديننا لهذه المرأة المهمة التي وقفت حياتها على ترجمة مؤلفات الآخرين حتى يقرأها ويقدرها أبناء وطنها . وقلنا ينال المترجم مثل هذا الثناء . ومن الثابت أنه لا يكاد يوجد اليوم روائي لم يتأثر تأثراً عميقاً بكتابات عظام الروس . فكلم من هؤلاء الذين تأثروا بهذا التأثر ودانوا للمؤلفين الروس هذا الذين الجليل كانوا يمدون الفراغ والمزعة والصبر الكافية لتعلم اللغة الروسية الصعبة حتى يستمدوا هذا الإلهام بأنفسهم . كم منهم كان يفعل ذلك لو أن كارت لم تقم بما قامت به ؟ إن فرجينيا وولف Virginia Woolf ، هذه الروائية والناقدة البعيدة الصيت قالت في إحدى مقالات كتابها النقدي « the Common Reader » : كل دراسة للرواية الإنكليزية الحديثة مهما كانت عامة موجزة يجب أن تذكر التأثير الروسي ، فإذا ما ذكر الروس لم يكفد بتلك المراء نفسه من الإفاضة في التحدث عنهم ، لأنه من إضاعة الوقت أن يتحدث عن رواية غير روايتهم . « فهل بعد هذا ثناء على الرواية الروسية ؟ والمراء حين يقرأ الأدب الروسي الحديث تأخذ الدهشة والاستياء إذ يراه مقفراً كل الأفكار من هذه العظيمة ، من هذا الفهم الشاسع البعيد الذي فهم به الروائيون القدماء الدنيا وأبناء جلدتهم من البشر . ويظهر أن الروس المعاصرين ، مع تفوقهم وامتيازهم في فن الرقص التمثيل والسينما والمسرح ، قد أجذبت عقولهم في فن الكتابة . حقاً إن روسيا السوفيتية لها كتابها ، وكثير منهم قد ترجموا إلى الإنكليزية ، ولكن أحداً منهم ليس في عظمة تولستوي أو دستيوفسكي ، بل لا يقرب من هذه العظيمة أقل قرب . من الصعب تحليل هذا ، ولكن العلة في نظري قد ذكرتها فرجينيا وولف في مقالة أخرى في نفس الكتاب حين قالت إن الخاصية المميزة للأدب الروسي هي انحصارهم الكتاب الروسي بروح الإنسان . قدستيوفسكي مثلاً لا يهتم كثيراً بوصف حجرة أو منزل ، بل لا

يهمهم بالصفات الجسدية لشخصياته ، فهو مهتم بأرواحهم ، ويوجه كل همه إلى وصف روح كل شخصية من شخصياته وكيف تقلبها واضطرابها . فامل الأمر إذن هو أن الروح الروسية القلقة قد وجدت في نواح كثيرة ملجأ للراحة والاطمئنان في النظام الجديد ، النظام الشيوعي . وبذلك قل اضطرابها وخفقانها عن ذي قبل أضف إلى هذا أن التفلفل السياسي الذي عانت روسيا في السنين الخمس والعشرين الماضية لا بد أنه كان له أثر سيء على الأدب . لقد قرأت مجلدات عديدة من الأفاصيص القصيرة الروسية الحديثة ولم أجدها إلا القليل مما يمد ممتازاً ، وكثير منها دعاية لا أدب

ولكن لنعد إلى الروائيين الروس القدماء . كم من الناس الذين قرأوا تولستوي ودستيوفسكي والآخرون يتذكرون اسم المترجم الذي مكثهم من قراءة هذه الروايات ؟ الترجمة فن أبعد ما يكون عن العمل الآلي : هي تتطلب أكثر من مجرد معرفة اللغتين . هي عمل خالق بلا شك ، والمترجم يستحق في الأوساط الأدبية من الشهرة أكثر مما يناله اليوم . المترجم لا ينال إلا نصيباً نايفاً من الجزاء السالي ، ولا يكاد ينال شيئاً من الثناء أو الذكر ، مع أن عمله في الدرجة القصوى من الأهمية ، وحتى أعظم الكتاب لم يدعوا عاراً عليهم أن يزاووا هذا الفن — فنا من شك أن الترجمة فن . فالشاعر الإنكليزي المشهور بوب ترجم أوديسة هوميرو من اللغة اليونانية ، وإن كان لا بد من الاعتراف أن بوب لم يكن المثل الأعلى للمترجم ، إذ أن ترجمته وإن كانت في حد ذاتها عملاً أدبياً فائقاً ، فهي تحتوي من بوب على قدر أكبر مما تحتويه من هوميرو . حتى إن أحد معاصريه هنا على عمله قائلاً : « قصيدة بديمة يا بوب ، ولكن ينبغي ألا نسميها هوميرو » . والشاعر الفرنسي بودلير ترجم المؤلفات الثرية للكتاب الأمريكي إدجار آلان بو إلى الفرنسية ، وترجماته تعد درراً من النثر الفرنسي بل إن شعره لم ينل في حياته إلا القليل من النجاح ، حتى إنه كان يصف نفسه مفتخراً بأنه « مترجم بو » . والروائي الفرنسي العظيم مارسيل بروست بدأ حياته الأدبية بترجمة بعض مؤلفات رسكن من الإنكليزية . وكلا بودلير وبروست يقدم مثلاً دقيماً لأدباء استمدوا إلهاماً عظيماً من كتابات مؤلفين قاموا بترجمتهم

القول أن نقول إن هذه الترجمة أمدت الكتاب الشمين بالهدف الذي طالما نشدوه ، وإنه لولا ألف ليلة وليلة لما وجد روبنسن كروزو ، بل ربما لم توجد رحلات جليلفر .^(١) بل قد قال بعضهم إن دانييل ديفو استمد إلهام روبنسن كروزو من قصة حي بن يقظان التي ألفها ابن طفيل ، وكان قد ترجمها إلى اللاتينية المشرق الإنكليزي القديم بوكوك . ويجب أن نذكر في هذا الصدد أيضاً ترجمة فترجرالد لرباعيات عمر الخيام ، وهي إن كانت ترجمة شديدة التصرف فقد كان ملهمها الشاعر والنجم الفارسي . كما قد زعم البعض أن رسالة الغفران لأبي العلاء العري كان لها تأثير كبير على دانتي في كتابه « الكوميديا الإلهية » . ومهما يكن من شيء فن المحتمل أن عناصر إسلامية كثيرة توجد في هذا العمل العظيم لدانتي وعن هذا يقول الأستاذ جب : « إن الاهتمام الذي كانت تتبع به الدراسات العربية في إيطاليا في زمن دانتي لا تجعل هذه النظرية أمراً مستحيل التصديق ، وإن لم يكن من المستطاع بعد إثبات هذا إثباتاً جازماً إلا في الجزئيات . ولكن هذه النظرية نظرية جذابة ، وأقل ما يجعلها ذات جاذبية إنها لو حجت لازدادت عبقرية دانتي سمواً ، إذ تكون قد ألقت في وحدة منسجمة رائمة بين التراث السحي والصوفي القديم العظيم ، وتجارب الإسلام الدينية ذات الفنى الروحي الزاخر . »^(١) أما عن ترجمة المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية ، فنقول إن العرب قاموا بترجمات من اللغة اليونانية تمد من خير الأمثلة التاريخية على الفضل العظيم الذي يسديه المترجم إلى الجنس البشرى قاطبة . كثير من المؤلفات الطبية والعلمية الأصلية التي ألفها عظماء مؤلفي اليونان قد ضاعت ، ولكن كثيراً من هذه المؤلفات المفقودة لا تزال موجودة في ترجمتها العربية ، وهذا من حسن حظ العالم بأجمعه . ويمكننا أن نذكر من كبار مترجمي العرب أبا يحيى ابن البطريق ، وهو من أول من ترجموا من اليونانية ، وثابت بن قرة ، ولكن أشهرهم جميعاً هو بلا شك حنين بن إسحق ، الذي كان يلقب بشيخ المترجمين . ومما يدل على علو مكانة الترجمة في العصر العباسي الأول أن جنيثا كان يعطى له راتب شهري سخى ، وأن الخليفة المأمون كان يعطيه

(١) المقالة من « الأدب » في كتاب « تراث الإسلام » أكسفورد .

ولورنس بلاد العرب قام بترجمة نظرية للأوديسة ، بينما قام الروائي د . هـ . لورنس الذي قد يعد أعظم روائي انكترا في القرن العشرين بترجمة روايات إيطالية عديدة ، وإحدى هذه وهي رواية Mastro—Don Gesualdo لمؤلفها جوفاني فيرجا ، تستحق من الشهرة أكثر مما لقيت ، ولورنس نفسه قد وصفها بأنها : « كتاب عظيم مغلد ، إحدى أعظم روايات أوروبا » . وهناك رجل آخر أسدى إلى الأدب يداً بيضاء بترجمته ، وهو سكوت مفكريف الذي ترجم رواية بروس الضخمة إلى الإنكليزية ، والترجمة الإنكليزية في اثني عشر مجلداً ، قام هو بترجمة جميعها إلا المجلدين الأخيرين ، إذ حال الموت بينه وبين إتمام هذا العمل العظيم . ويقال إنه في زمن ما كانت عادة أغلب الناس في باريس أن يقرأوا رواية بروس لا في الفرنسية الأصلية ، بل في الترجمة الإنكليزية . فهل بطمع مترجم في ثناء أبلغ من هذا الثناء ؟

إن ترجمة الكتب الأجنبية كان لها على أدبنا الإنكليزي آثار عظيمة بالغة ، وأبرز مثل لهذا هو الكتاب المقدس ، فلكتاب المقدس في الإنكليزية ما للقرآن الشريف في العربية ، هو ليس أساس التفكير الديني غصب ، بل هو قد صار قسماً من الأدب ، ومثلاً للكتابة النثرية الفاتقة

بل إن التأثيرات العظيمة التي تأثر بها الأدب الإنكليزي في مختلف المصور كانت كلها راجعة إلى الترجمة . إليك مثلاً الترجمات المختلفة للقرآن ، أول ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية كانت ترجمة لاتينية قام بها في سنة ١١٤١ بطرس رئيس دير كلوني ، وعاونته ثلاثة ممثلين مسيحيين وعربي ، وظهرت أول ترجمة إنكليزية في سنة ١٦٤٩ ، ومن يومها طبعت ترجمات عديدة أخرى أشهرها ترجمات سيل وردويل وبالر ومهدوك بكثال ، وهذا الأخير هو إنكليزي مسلم ، ألف عدداً من الروايات والقصص عن الشرق

ولكن الكتاب العربي الذي كان له أبلغ الأثر على أوربا هو ألف ليلة وليلة . وقد ظهرت له ترجمتان إنكليزيتان جيدتان قام بهما إدوارد لين وسير ريتشارد بيرتون ، وإن لم تكن هاتان لأول ترجمة للكتاب . والمشرق البريطاني هـ . ا . ر . جب يقول عن أثر هذه الترجمات الأولى لألف ليلة وليلة : « ليس من شغل

الحديث يجب الاستئذان بها . ومن المترجمين المعاصرين يمكننا أن نذكر أحمد حسن الزيات ، مترجم « آلام فرتر » ، والدكتور محمد عوض محمد ، مترجم « فاوست » لجوته ، ومحمد السباعي ، الذي ترجم إلى العربية كثيرا من روايات ديكنز كما نظم بالعربية رباعيات الخيام ، وحافظ إبراهيم الذي ترجم « البؤساء » لهيجو . ويلزمنا أن نذكر أيضا ترجمات أحمد الصاوي في « مجلتي » والعمل الذي تقوم به اليوم لجنة التأليف والترجمة . إلا أنه لا يزال أمام المترجم العربي كنوز زاخرة ، وبخاصة أن القارئ العربي والسكان العرب في يومنا هذا قد أخذ يزيد اهتمامهما بالقوالب الأدبية الرائجة الآن في الغرب كالرواية والقصة القصيرة .

هذا وأحب أن أكرر أن الترجمة ليست عملا آليا بحال ، وأنها ليست مجرد وضع كلمة محل كلمة ؛ بل هي فن ، وهو فن ، لا يزال في المهد صيبا . ولقد ظهر حديثا في بلادنا عدة كتب تدور على فن الترجمة . وسأقتبس من أحد هذه الكتب القطعة الآتية التي تبين أهمية هذا الفن : « لا شيء يتحرك بدون ترجمة ؛ فالتجربة الإنسانية تتضمنها عبارات ثلاث : المواطن ، وطرق التأدية ، والفكر . فالمواطن (مثل الخوف الخ ..) لا تتغير طبيعتها ، أما الفكر وطرق التأدية فتتغير . فإذا حدث تغير في الفكر أو طرق التأدية فلن يقدر له الشروع والانتقال بنير الترجمة ، لأنه لكي يشيع يجب أن ينتقل من أمة إلى أمة ، أي من لغة إلى لغة . » (١)

إن العالم الحديث يدرك الآن أن الأمم ، كالأفراد ، يجب أن تتعاون إذا أرادت الظفر بالسلام والمادة والرخاء . كذلك شأن الأدب . الأدب كالتجارة ، يجب أن يكون دائما في حركة مستمرة ، يجب أن يكون فيه على الدوام دخل وخرج ، أخذ بين الأمم المختلفة . فالذي يقوم بوظيفة التاجر في هذه المعاملات الحيوية هو المترجم .

[عن مجلة الأدب والفن الانكليزية]

د . هرنسوره رافير

زنة كتيبه المترجمة ذهبا . ومن الترجمات العربية التي أنقذت من من الفناء نصا مفقودا كتاب ابن الفصح « كليله ودمنة » ، الذي كان أصله باللغة السنسكريتية ، والكتاب العربي مترجم من ترجمة فارسية للكتاب السنسكريتي ، وكلا الكتابين السنسكريتي والفارسي قد ضاعا ، حتى صارت الترجمة العربية أصل جميع الترجمات الموجودة الآن للكتاب في كل لغات الدنيا . ومما يدل على الأثر العظيم الذي كان لهذا الكتاب أنه كان أحد المصادر التي استمد منها الشاعر الفرنسي لا فونتين قصصه الخرافية عن الحيوان .

ولقد كان للترجمة أثر عظيم في النهضة الحديثة للأدب العربي ، ومحمد علي نفسه قد أدرك ضرورة القيام بترجمة الكتب العلمية الفنية من اللغات الأوروبية فأسس مدرسة للترجمة وجعل مديرها الكاتب القدير الشيخ رفاعة الطهطاوي ، وقد عرفت فيما بعد بمدرسة الألسن . وقد قام رفاعة نفسه بترجمة عدد كبير من الكتب الحديثة من اللغة الفرنسية في التاريخ والجغرافيا والفلك والقانون وغيرها من الموضوعات . وكان محمد علي هو الذي بدأ إرسال البعث العلمية إلى أوروبا ، ويقال إنه عند رجوع الطلبة إلى مصر كان كل منهم يعطى كتابا في الموضوع الذي درسه ويحبس في القطعة ثلاثة أشهر حتى يترجم الكتاب إلى اللغة التركية . ثم تطبع هذه الكتب وتستعمل في المدارس . فإذا جئنا إلى الأجيال الأخيرة تسارعت إلى أذهاننا أسماء رجال كثيرين خدّموا الأدب العربي أجل خدمة بترجاتهم . فما لا شك فيه أن من أعظم الآثار على الأدب العربي الحديث الأثر الذي تركه المنفلوطي ، والجزء الأكبر من مؤلفاته ترجمة أو كتابة أهمها الأدب الغربي . ولقد بلغ من شعوره بحاجة الأدب العربي إلى دم جديد أنه على الرغم من عدم معرفته هو باللغات الأوروبية تكبّد مشقة العثور على رجال يعرفونها وطلب إليهم أن يترجموا له الكتب الأوروبية ثم يقوم هو بصوغها في قالب عربي حر . حقا إن الكتاب المعاصرين قد أمطروا المنفلوطي بسهام تقدم المر ، وهو نقد لا شك في عدله ، وبخاصة مقالة العقاد من المنفلوطي ، فكتابات المنفلوطي بها عيوب ونقائص كثيرة ، ولكن على الرغم من هذا كله فإن أياديه على الأدب العربي